يــا .. يافــا !

قصة بقلم خناثة بنونه

امي .. حينما بذل صوتك جهده وقال لي : ((لسنا من هنا)) ، انفتح في قلبي ما وددته : لقد كرهت أن اكون من هنا ، من الدرب الذي تعفر سطحه بكل الوحل ، فمن اين نحن يا اماه ؟ .

وتقلص صوتك بشيء لم افهمه ، كما لم آفهم آلى الان منبع الظلم ومنطلقه :

ـ من يافا .

يافا : .. وما تكون يافا هذه ؟ .. افيها يكمن السر .. سر النكد الذي لم انجح ابدا في ان اجد غيره بوجهك ، والذي طالما حاولت ان أغرس فيه بهجتي البكر لاقتلع منه صرامته ؟

ورمقتني ببصر تكمن فيه ضجة خيل الي انها منتظرة ، ولم تتسلل من صمتك غير اشارة ، فانحدر بصري في امتداد الاصبع وتوقـف على الاسلاك :

ـ واين هي ؟؟ .

هكذا الححت وانا أغرس تنبهي كله في الثقب واود لو اراها . فمال رأسك كما اعتاد أن يميل حينما انفلت من حصارك ، فيحدثنـي فم صديقة بأن العالم يطفح بالنكبات . ولكنك انت تريدين ان تنفـي عني النكبات بالميلان المنهار للعنق الذي يحمل رأسا يطحنه هدير .

وضج عمقي عن تصميم : سوف آراها .. يافانا هذه .. فلعـل فيها السر الذي تخفيني عنه حينما تمسك بي عن كل الاصوات، واتخذت من السلك نفسه وسيلة للمعرفة .. فيا ايها الثقب اين يافا ؟؟ .. ان امي تنطقها بقداسة نكدة .. فكيف تكون ؟؟ .

حملقت وتمعنت .. فطلع بصري بكل شيء غير يافا : البنايـات المتواطئة بصمت مفروض .. وتلك الصومعة البعيدة التي كـان ارتفاعها وغربتها يشداني الى نداء اصم لها .. وهدير قطار يمر اثـر الحين ، فيخيل الي انني لا بد ان اركبه .. وهذه السحنات الجامدة كسحنة امي والتي لا تمنحك نفسها الا لبرهة ثم تختفي ، وسـألت نفسي : ترى اي خيط هائل يربطني بالصرامة فيها .. ان فيها مـا احبه ، الا هذا .. فان سحنته تختلف ، مع القبعة والبندقية وخطوات الاحتراس التي يبذرها امامنا فيما وراء الاسلاك .. اسلاك بيـت صفافة . ولقد نبهتني امي لان احترس منه : حارس صهيوني ! وفي النبرة التي بلغتني من صوتها تعلمت ان اكرهه .. خصوصا وان امي اذا خرجت فصدمت صورته وجهها ، فانها ترمقه شزرا وتسرع، ولكنني لم استطع ان اظفر بما هو اكثر .. لانك انت .. حتى انت يا اماه .. كنت تنتصبين عند حدودي حارسا يحميني من كل الاخبار ، الـى ان انفلت منك : لسنا من هنا . فدقت الزمجرة بين أضلعي ولم تستكن.. ان وراء صمتك وصمت الدرب وصمت الجيران خلف الاسلاك مـا اجهله .. يجب ان اعلم .. حتى ولو تحديت حراستك وحارس الاسلاك في الخلف : اصبحت افتح الباب خلسة واضع يدي المدملجة فـي خصري واميل على جدار الباب في وقفة معتدة واغرس بصري الصغير الغاضب في كل شيء امامي .. حتى فيه وفي بندقيته ونظرته. وكان يسليني كثيرا الا اخطف نظرتي من بصره .. كأن ذلك البصر ، كهذه الاسلاك ، يمكن ان اتجاوزهما الى ما بعد .. الى هدير القطار ... وعجائب يافا .. فسر امي ، وقلت لها ، وقدر من الخيبة في اعماقي :

ـ لم أرها بعد ؟

ـ ما هي ؟

ـ يافا !

فتلوى الرأس كما لا يجب أن يتلوى ، ولم ينتصب امامي بكـل الفواجع التي هي لنا ، وجاءني صوت اغضبني :

ـ الا زلت تفكرين في الامر ؟

ثم رمتني ببصر يعود بي الى عمري .. ولكن نضجا اكبر ، كـان يتوالى في اعماقي جعلني اعلن بمنطق يفوق سني عمري :

ـ لقد قررت الا افكر في سواه .

ودبت يدك الوديعة تريد ان تتلمس كتفي لان تحميني مـن كـل شيء حتى من نفسي ، ولكن البذرة كانت قد سقاها صوتك : لسنا من هنـا ..

وتصيدت انشغالاتك وخلواتك التي طالما انتهت باحمرار مآقيك.. ذلك الاحمرار الذي اصبحت اهمله لاشد تنبهي للشارة التي خطهـا اصبعك في مده وأنت تخطين اتجاها ليافا ، اجلس عـلى حافة الباب واستسلم للدرب الغامض .. ثم يسير بي الزمن فتبلغني ترنيمـة الاسورة في يدي وانا اتلاعب بها في سهو كأنني اطرد بها هذا الهدوء الميت الذي يلفني من الدرب ، ولكنك ، شأنك دائما ، بالمرصاد :

ـ ما معنى ان تجلسي هنا ؟!

ـ وما معنى الا ارى يافا !!

وتلاقى استفسارنا مع بعضه ، فنضحت عيناك دمعا وشـددت بذيلك وقلت بتضرع : انني احب ان اراها .. خذيني اليها ، فضممتني بعنف وبلغت شهقاتك اذني ولكن غضبي كان اعنف ، تسللت مـن حضنك .. وانزويت في الركن الآخر .. وكل شيء تطبعـه شهقاتك لا أراه ولا اسمعه ، فلقد سقطت في حزن كبير : افلا تكون يافا هـي مدينة وقواق في حكايا الصغار .. محفوفة بالدمع والصمت والمغامرة .. هل لا بد من البكاء قبل ان نبلغها ؟! . وكره فكري الصغير قبـول دور السندباد الباكي .. كأمي .. هذه التي اريدها أن تأخذني .. لكن لن أقبل ابدا ان اعود على الدموع...

وسرت اليها .. وقلت بغير صوتي : ما الفائدة .. ان الدمـوع تؤخرنا اكثر .. يجب ان نذهب .

فتحاملت .. يا امي .. يا امرأة حفرت النكبات اس اغـوارك فتفجر منها الدمع الذي يتبخر .. وقلت بلهجة لم تكن لهجتك مـن قبـل :

ـ طيب .. أطمئني ، سوف نذهب .

وكان فكرك يدبر امره .. ولم افطن .. ربطتني بصداقات لعـل يافا تضيع فيها . وسمحت بزيارات ومواعيد وأحاديث .. وكان كل ذلك مدبرا باختيار منك .. فليس في كل ذلك الا ما يسرقني من يافا وهمومك .. وقدمت لي بهجة اخرى : ابدلت لي اسورتي باخـرى كبرى .. فكنت فيها ذات امتياز .

***

.. ويافا .. وهذه الوجوه .. واسورتي .. وبقية الايام .. وجمالي : ان كل ذلك كان يركز عندي ما ساختاره . تدلهت يا محسن في عيني وقلت لي : ((متى اذوق لايامي طعما ؟)) فرددت : ((وهل ملكت الايام اي طعم ؟)) .

وكان طعمك وما يمكن ان يكون طعما عندي ، يتواجهان : فلارضاء أحدهما لا بد من ارضاء الآخر : رهنت مستقبل التذوق بمـا يمكنك

ان تعلمه لي : فحكيت لي .. ويا للاهوال .. أمة مطرودة وعالم راض .. وبيني وبين يافا طريق سقته أمي بالدمـــوع . ولكن كيف تراه انت يا محسن ؟ .

ـ ان أعمالنا امامنا .. ونحن الان نتهيأ .

وطعم أيامك .. فهل تقبل زوجة بلا طعم .. وطعمي في طعمنا.. واعمالك في عملي .. والامام فرض علينا .. فعليك ان تعلمني كيف؟.

ولم تستطع الا ان تقول :

ـ انها المعركة .. ونحن فيها سواء .

ثم عرفت شعابك وزواياك ومخابئك .. كيف يطرح الفلسطيني عواطفه في عمله .. في غير شبه بأمي .. بك انت .. يا امرأة عرفت الان مناحي مدمعها : يافا .. فلسطين .. واهلك .. وابي : فبعـــد اشهر من زواجكما ، قرر : انها المعركة .. وقد لا اعود .. وبر بعزمه ولم يعد ، فاستمرت ايامك مع العواطف التي كانت ستكون لـــك ولكنها سرقت منك الى الابد ، ومع اولئك الاموات والخسارات وكثير من الآمل ، وهاته الذكرى : أنا .. بكيت بدمعك ودمعي ، وخبأت همومك وهمومي في اعماقك وفضلت لي ان اكون من جيل بلا نكبات . ولـن ابكي .. وتلك فضيلتك .. فلست من جيلك : جيل الحسرة والدموع .. ولكن ، لن أقبل ابدا ان تفرضي علي الهروب مما امثله :

امرأة بلا مدينة .. مدينتها موغلة في الوحشة والحزن، تطأهـا اظلاف بشر العصر الجليدي . فيا امي .. كل ما هناك ، انني اريـد ان انتسب عملياً للنجم الذي يمثل عندي مدينتي ، والذي ناجيتـــه مرارا قبل أن اقدم على العمل .. قبل أن استحق ان اكون ابنة الرجل الذي عرف ما يختار : حبه او مدينته ؟

قلت لمحسن .. وطعم الحياة الصغيرة يمتلكه في بعض اللحظات: ابدا .. انني بلا مدينة ، وعليك أن ترفعني الى مستوى الشعـــور بالقدرة على الانتساب اليها .. عمليا ، لاكون لك .

وفعل .. دربني ، حيث كنت واياه نلتحم حول الجوهر الصميمي لما يمكن ان نكونه : فلسطين المنتظرة .

.. عرفت انني انثى تلزمها مدينتها .. رمز القطر والوجـــود بالتمام . وكان حبك يطغى ، وبقية الاخريات هل يعين المأساة علـى نفس المستوى ، وامي تتخطفها فرحة صغيرة بسبب محسن ، والجارات خلف السلك يمثلن المأساة في اوجها ، وذلك الرائح الغادي الـــذي يحرس السرقة : كيف احتمله ؟؟!

وقلت بصوتك البهيج المنسلط ابدا :

ـ الحقيقة انك بارعة .

قلبته بين يدي واقترحت :

ـ اريد ان تشتري لي مثله .. استطيع أن ادفع .

ـ لماذا ؟

فلمتك :

ـ اليس عملنا في الامام ! .

ووافقت ، فربض في درج خزانتي المسدس الذي اتعشقه عوض اسورتي .. واصبح كل شيء يتضح اكثر ـ وكان حبـــك وغربتـي يتصارعان .. وكيف السبيل ؟! ـ .

أحبها .. مدينتي .. كما أحبك واكثر ، وانـــي أتمثلني فـي الحضيض .. وليس هناك ما يرفعني الا عمل حقيقي ، وبقية الفتيات المطرودات كيف تراهن ؟ وهل تملك امرأة ان تقول : ها انذا .

وارقت الليالي .. واختلطت مناجاتك لي بمناجاتي للنجم فـي الافق .. ولاح لي انه رمز مدينتي يطل علي رغم السور ودبيب اللص خلفه .. فتمنيت لو انني من عصر العمالقة لاخطفه ..

واخذت امي تراقبني أكثر .. فاصبحت اخافها واخافك واكـره اللص عند الاسلاك .. اكرهه واتعلق بالنجم .. وكان دبيب مشيته عند منتصف الليل يسحقني : انه يتحداني .. انا .. انا الانثى بلا مدينة .. يحمي سرقته مني برصاص الدولار ، وهلا يدري انني اكبـر منه : امرأة تملك ما يدمره ويفني خطاه الى الابد .

وعدت اليك يا محسن .. حشوت حنين الاعماق اليك والـــى مدينتي في حضنك وسألتك بلهجة تكاد تبكي :

ـ الى متى ونحن ننتظر .. الا نستطيع ان نبدأ ؟

العمل الفردي لا يبني .

قلت هذا وانت لا تدري بالطاقة في اعماقي : ما تستطيع ان تدمره وتعيد خلقه ، وقلت :

ـ لكن هناك أنا وانت والآخرون .

فسطع على ملامحك وهج رجل قد اختار امرأته ، ثم غيرت :

ـ ومتى سنحتفل ؟

وكل ما اسمعه واراه واتطلبه اين هو ؟ .. فلكأنك لا تدري انني ابنة من ..

ـ اجيبي .. متى سنحتفل ؟

حتى انت يا محسن ! .. حذار ان تكون اصغر من ابي .. ان يكون الرجل فيك اكبر من الانسان .

ـ نحتفل !

هكذا اجبتك بأسى .. فهل نملك شجاعة ان نفعل .. غـــرباء محتقرون يحتفلون .. تغريهم لذاذاتهم عن تقويم كيانهم والاعلان عنه : كأي انسان حقيقي .

ولمست كفي كأنك قيس .. فارتج كياني بخطوات منتصف الليل والنجم في البعيد والمدينة الضائعة في مكان ما .. وكدت ان اكـون امي .. ان ابكي .. لانني امرأة تريد بطلا .. يضع على صدره هالة ويتقدم .. فامنحه يد ليلى .. هذه التي تعرف كيف تقتل وتحيي ، ولكنك يا محسن ، لحت لي في البعيد .. تلثم كفي وتهمس :

ـ اجيبي .

فاستيقظ في ذلك الرجل الذي بذرني قبل موته ، وصمم : قد لا يكون .

وحكت خطاي لوعة انثى ضائعة بصدق .. بلا ام ولا مدينـــة أو محسن .. فهم كالعالم ، قد غدروا بي : فأمي تخلدني كذكرى حب ابتدأ ومات ، وانت ترهن المستقبل للحظات ضرورية ، وانا اريد ان اتجاوز اللحظات لاخلق أخرى في غير الوحل .. في غير هذا الدرب وبصماته .. فهل تستطيع ان تنجز امرا خارقا ؟ .

وطوال الليل كنت ابحث من خلال تصرفاتك وطبيعتك عن نعم .. لاقتنع بأنك في الغد ستفعله ، وبعد غد ستتزوج ونقيم العرس فـــي موكب النجوم . ولكن الخطوات ازدادت الحاحا .. واصرارها يحكي المأساة من الاول .. وابي قد ضاع مني الى الابد .. وهل يمكن ان اسالم من سرقه ؟ .

واهتاجت كل جارحة . والارض كوكب مظـــلم لان نجمه الوحيد (يافا) في البعيد ، وانت يا محسن قد انتصرت على حبك بحب اكبر، وطاقة ابادة تنفجر في اضلعي ، والسارق هو من سرق او من سكـت عنه . وحركة العالم قد احتضرت الا هذه الخطوات ، وليست امامـي غير بطولة او موت حقيقي ..

وصوبت .. ضغطت باتقان تعلمته منـــك .. فتناثرت صيحات الوغد في المدى .. وافتر وجه النجم عن ابتسام ولاح فيه وجه لابـي كنت قد رأيته في صورة .. واندحرت خطوات الصهيوني الى الابد.. وتفجرت الحلكة عن دروب وابنية وشارة نصر : انها مدينتي .. فيـــا يافا .. يا مدينة الاب والثأر والرصاص والنجوم .. انك في ذمتهم.. في ذمتك يا محسن ويا كل الآخرين وكل محسن .. أن تبلغوا بي يافا .. فالباب لن يغلق بعد.. وها نحن نشرع : فلقد مات الانتظار..(*).

فاس

خناة بنونة

(*) من مجموعة : النار والاختيار .